الباب الثانى

التدمير الذرى فى القرون الأولى

«ثمود .. وقوم لوط وأصحاب مدين»

* الرسالة والرسول
* تدمير هلكى الصحية
* التدمير الذرى
* وصف كارثة نجازاكى بلغة القرآن الكريم

الفصل السابع

الرسالة والرسول

تمهيد :

خلق الله الانسان ثم نفخ فيه من روحه ففضله بذلك على كل خلائق الأرض ، وعلى كثير من خلائق العوالم الأخرى . وقال فى شأنه :

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . (الاسراء : ٧٠)

وتميز الانسان بنعمة العقل التى ارتبطت بها حرية الارادة والاختيار ، فسما بذلك عن البهائم العجماوات والجماد المسخر . وقد أودع الله فى الانسان طاقات وغرائز مختلفات ، يستطيع بها ان يرقى الى عالم الملائكة او يهوى بها الى عالم الشياطين . ولما كان الصانع أعلم بصنعته كان من المنطق الا ينصلح حال الانسان الا بمنهج الهى يهديه سبل الحق والخير والأمن .

ومن رحمة الله بخلقه وحكمته فيهم أن أرسل اليهم رسلا منهم اصطفاهم وهو ــ سبحانه ــ أعلم بخلقه وبعثهم بالمنهج الالهى الذى يقوم على ركنين أساسيين :

الأول : ايمان بالله ، عصبه التوحيد الخالص الذى لاشبهة فيه .

والثانى : عمل صالح وفق سلوك قويم يحفظ الحقوق ويؤدى الواجبات .

تلك سنة الله فى خلقه منذ هبط آدم وتلك قوانينه وكلماته :

« يا بنى آدم : اما ياتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » .
(الأعراف : ٣٥ ـ ٣٦)

*

لقد عاشت البشرية على هذه الأرض مئات القرون ، وتعاقب فيها الكثير والكثير من رسل الله ، قص القرآن بعضا منهم ، وترك قصص البعض الآخر بعد أن أشار اليه :

« انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما »
(النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥)

لقد جاء رسل الله الى البشرية كثيرين ، لأن قرونها المتعاقبة كانت كثيرة لا يعلمها الا الله :

« الم ياتكم نبأ الذين من قبلكم : قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، والذين من بعدهم ، لا يعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات » . (ابراهيم : ٩)

ولنا أن نتوقع أن يكون رسل الآخرين اكثر من رسل الأولين ، نظرا لتكاثر البشرية واضطراد نموها الذى يتم غالبا وفق متوالية هندسية تجعل الأقوام كثيرين ، يحتاجون الى رسل كثيرة .

ويؤكد القرآن الكريم أن سيل الرسالة الالهية لم ينقطع فى الأمم عبر القرون :

« ولقد بعثنا فى كل امة رسولا : ان اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت » .
(النحل : ٣٦)

« انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وان من امة الا خلا فيها نذير » .
(فاطر : ٢٤)

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا يتلو عليهم آياتنا، وما كنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون » . (القصص : ٥٩)

ومن رحمة الله بخلقه ان كانت رسله ــ سبحانه ــ اليهم ، تحدثهم بلغاتهم التى درجوا عليها فيسهل البيان والتبيين :

« وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ، ليبين لهم » .

(ابراهيم : ٤)

*

وما كان خلق الله وبديع صنعه عبثا ، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو اردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين » . (الأنبياء : ١٦ ــ ١٧)

« ما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى » .

(الأحقاف : ٣)

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار » . (ص : ٢٧)

« افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم . ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به ، فانما حسابه عند ربه ، انه لا يفلح الكافرون » .

(المؤمنون: ١١٥ ــ ١١٧)

*

الأمر اذن جد خطير ، ويجب ان يحمله الانسان على هــذا النحو ، والا هلك وضاع . ولذلك حل العقاب الآلهى بمن كذب الرسالة ، واستهزأ بالمرسلين :

« وكاين من قرية عتت عن امر ربها ورسله ، فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال امرها وكان عاقبة امرها خسرا » .

(الطلاق : ٨ ــ ٩)

* * *

موقف العرب من الاسلام :

استقبل عرب الجزيرة وخاصة القرشيين ـ أهل النبى وعشيرته ـ الاسلام بمثل ما استقبلت به الأقوام السابقة رسالات الله اليها، اذ تصدى لمقاومتها كبراء القوم الا قليلا واستجاب لها أغلب الضعفاء .

« وما ارسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين » . (سبأ : ٣٤ ـ ٣٥)

وتفيض آيات القرآن الكريم بالحديث عن أمم كثيرة ـ سبقت أمة العرب على عهد الرسول ـ كذبت رسل الله استكبارا ، وتمردت على ما جاءوا به من منهج الهى ، فنزل بها عذاب الله ، وترك بصماته باقية فى آثارها .

ولذلك يدعو القرآن الناس الى السير فى الأرض ، والتنقيب فى آثار السابقين ، واستقراء تاريخهم ، بهدف الموعظة والاعتبار ، لكى تتحقق لهم النجاة من مصير نظير :

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين » .
(آل عمران : ١٣٧ ـ ١٣٨)

« أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم، كانوا هم اشد منهم قوة وآثارا فى الأرض ، فاخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق . ذلك بانهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فكفروا ، فاخذهم الله ، انه قوى شديد العقاب » . (غافر : ٢١ ـ ٢٢)

« وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد » .
(هود : ١٠٢)

*

ولقد حذر القرآن عرب صدر الاسلام من التكذيب الذى يفتقد المنطق والبرهان ، وبين لهم أن موقف الجحود الذى اتخذوه انما يعرضهم لما أصاب

الأمم السابقة من كوارث ، تلك الأمم التى بلغت من القوة والثراء ما لم يحظ أولئك الأعراب الجاهلون الفقراء بمعشاره :

« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، قالوا ما هذا الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا الا افك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين .

وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، فكذبوا رسلى ، فكيف كان نكير » . (سبأ : ٤٣ ـ ٤٥)

« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا اشد منهم قوة واثاروا الأرض وعمروها اكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا انفسهم يظلمون » .
(الروم : ٩)

* *

القرآن والأمم السابقة :

بدأ القرآن حديثه عن الأمم السابقة مبكرا ، فقد جاء أول ذكر لذلك فى سورة المزمل ثالثة السور ترتيبا فى النزول ، وكان أول من تحدث عنهم فرعون مصر الذى جاءه موسى والذى يعتبر وقومه من أحدث الجماعات الجبارة فى تاريخ الأولين :

*

« انا ارسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم ، كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فاخذناه اخذا وبيلا » . (المزمل : ١٥ ـ ١٦)

ثم تلى ذلك الحديث عن عاد وثمود ، وهى أمم أولى من شعوب شبه الجزيرة العربية التى عاشت قبل عصر فرعون بقرون :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا فى البلاد . فاكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . ان ربك لبالمرصاد » . (الفجر : ٦ ـ ١٤)

*

وتوالت آيات الله تتحدث عن الأولين ومصائرهم ، فذكرت أصحاب الفيل ، وهم فئة مغرورة جاءت من اليمن تبغى هدم الكعبة بيت الله . ثم جاءت سورة النجم تذكر عادا وثمود وقوم نوح وقوم لوط .

ثم ذكرت سورتا الشمس والبروج : ثمود ، وفرعون وقومه .

حتى اذا نزلت سورة ق ، كان قد اكتمل ذكر الأولين الذين تكرر ذكرهم فى القرآن الكريم وحق عليهم القول ، والذين يرتبطون بالعرب من قريب أو بعيد ويمكن استقراء تاريخهم .

« كذبت قبلهم قوم نوح واصحاب الرس (١) وثمود وعاد وفرعون واخوان لوط . واصحاب الايكة (٢) وقوم تبع (٣) كل كذب الرسل فحق وعيد » . **(ق : ١٢ - ١٤)**

ويهمنا الآن أن نلم بشىء من تاريخ بعض تلك القرون الغابرة ، قبل أن ندرس كيفية تدميرها حسبما ينبئنا به ما تيسر لنا من معلومات .

* * *

من التاريخ :

يقول المؤرخ الايطالى موسكاتى : منذ حوالى القرن الخامس قبل الميلاد بدأ يظهر على الحوائط الصخرية فى شبه الجزيرة العربية آلاف من النقوش هى عبارة عن كتابة للغة الشمال بحروف الجنوب العربى .

وتؤكد الاكتشافات الحديثة ذلك وخاصة بعثة ريكمنز . وتعرف هذه النقوش المنتشرة فى وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها بالنقوش الثمودية،

---

(١) اصحاب الرس : قيل هم اصحاب الاخدود الذين جاء ذكرهم فى سورة البروج ، وقيل هم اصحاب القرية الذين ورد نبؤهم فى سورة يس ، وقيل غير ذلك .

(٢) اصحاب الايكة : من قوم شعيب .

(٣) قوم تبع : كانت حمير - وهم من سبأ - كلما ملك فيهم ملك ، سموه تبعا : كما يقال فرعون لملك مصر : وكسرى لملك فارس ، وقيصر لملك الروم .

وذلك نسبة الى قبيلة ثمود التى تكلم عنها القرآن ، وكما هو مذكور ضمن هذه النقوش ذاتها ..

ويذكر فيليب حتى أن ثمود قوم عرفهم التاريخ ، فقد ذكرتهم الخطوط الأسفينية فى مدونات سرجون الثانى الأشورى سنة ٧١٥ ق م وعرفهم أيضا كتاب اليونان والرومان باسم ثموداى ، والتحق بجيش بيزنطة فى القرن الخامس للميلاد فيلق من الخيالة الثمودية . أما نو عاد فقيل نهم سكنوا حضرموت القديمة

ويقول المؤرخ الفرنسى سيديو : واذا عدوت بنى قحطان وبنى اسماعيل وجدت بلاد العرب تشتمل فى غابر الأزمان على بقية من العروق الفطرية ، تغشى أخبارها طبقة كثيفة من الغموض .

وكل ما يعلم أو يفترض هو أن قوم عاد جابوا ــ غالبين ــ بقيادة شداد ولقمان ، بلاد العراق والهند قبل الميلاد بأكثر من ألفى سنة .. واستولوا على مصر فى ذلك الحين باسم الرعاة أو الهكسوس .

ويظهر أن العمالقة الذين يعدون من فصيلة الهكسوس قد انتشروا فى العصور الخالية فى جميع أجزاء بلاد العرب .. وكانت خاتمة الطواف أن تجمعوا فى شمال جزيرة العرب مع الأدوميين والمؤابيين والعمونيين واستولوا على سهول بلاد الحجر العربية وعلى سهول بلاد العرب الصحراوية المجاورة لفلسطين وسورية ، فحالوا دون دخول العبريين (الاسرائيليين) أرض كنعان (فلسطين) (١) .

هذا ــ ولم تكن مصر هى البلدالوحيد من بلدان الشرق الأوسط الذى تعرض لغزو الهكسوس فقد سيطروا كذلك على سوريا وجزئها الجنوبى فلسطين .. ولقد نتج عن حالة الاضطراب السياسى التى عمت بلدان الشرق الأوسط فى تلك الحقبة من الزمن ، أن توقفت كتابة تاريخ

(١) فلسطين بين الحقائق والاباطيل ــ للمؤلف ــ ص ١٣٧ ــ ١٣٩ .

الحضارة فى كل من مصر والعراق ، وساد الظلام التاريخى لبضعة قرون وفى هذا يقول أولبريت :

لقد توقف تسجيل التاريخ فى كل من مصر وبابل ، بعد أن كان تياره يجرى متدفقا طيلة اثنا عشر قرنا من الزمان أو يزيد .. وقد وجد أن النقوش المصرية التى كانت تستخدم فى تدوين التاريخ قد توقفت منذ عام ١٥٨٠ق.م كذلك فان النقوش البابلية توقفت بعد سقوط بابل عام ١٥٣٠ ق.م واستمر ذلك حتى حوالى عام ١٤٠٠ ق.م .

واما النقوش الأشورية فانها توقفت منذ عام ١٧٢٠ ق.م ولم تبدأ الا حوالى عام ١٥٠٠ ق.م .

هذا الاضافة الى عدم وجود مدونات لامبراطورية الحيثيين القديمة .

وخلاصة القول هنا أن كارثة ما قد حلت بتلك الامبراطوريات القديمة وأوقفت كتابة التاريخ بتسجيل النقوش والآثار .

واذا أخذنا فى الاعتبار ما يذكره التاريخ عن قوم عاد الجبارين الذين سكنوا جنوب شبه الجزيرة العربية وقال عنهم سيديو أنهم غزوا مصر اسم الهكسوس ، وغزوا كذلك الحبشة والعراق والهند حوالى الألف الثانى قبل الميلاد ، واذا أخذنا فى الاعتبار كذلك أن هذه التواريخ القديمة تتعرض للاختلاف فى حدود ثلاثة قرون ــ صار من الأرجح أن تكون الكارثة التى حلت بامبراطوريات الشرق القديمة ، والتى أشار اليها أولبريت ، قد أسهمت فيها عاد بنصيب كبير ، ان لم تكن هى المسئولة عنها بالكامل (١) .

*

ويصف القرآن قوم عاد بالقوة والبطش والفتوحات التى حالفهم فيها النصر ، فيقول :

---

(١) فلسطين بين الحقائق والاباطيل ــ ص ١٤٦ .

« كذبت عاد المرسلين . اذ قال لهم اخوهم هود الا تتقون . انى لكم رسول امين . فاتقوا الله واطيعون . وما اسالكم عليه من اجر ، ان اجرى الا على رب العالمين . اتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم ، بطشتم جبارين . فاتقوا الله واطيعون . واتقوا الذى امدكم بما تعلمون . امدكم بانعام وبنين . وجنات وعيون . انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا اوعظت ام لم تكن من الواعظين . ان هذا الا خلق الأولين ، وما نحن بمعذبين . فكذبوه فاهلكناهم » .
(الشعراء : ١٢٣ ــ ١٣٩)

ولقد كانت قوة عاد وبطشها مدعاة لغرورها الشديد ، ذلك الغرور الذى أرداها :

« فاما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا من اشد منا قوة . او لم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة » . (فصلت : ١٥)

*

وأما ثمود فتظهر كشعب قوى فى التاريخ حوالى القرن العشرين قبل الميلاد . وكانت مساكنهم بالحجر المعروفة بمدائن صالح ، فى وادى القرى بين الشام والحجاز الى ساحل البحر الأحمر .

وقد زارها الاصطخرى وذكر أن بها بئر تسمى بئر ثمود .

واما قرى قوم لوط فتقع فى سهل البحر الميت بفلسطين ، واشتهر منها قريتا سدوم وعمورة .. فهناك استوطن لوط قريبا من مستوطنة عمه ابراهيم ــ أبى الأنبياء ــ حين هاجرا من العراق الى فلسطين حوالى القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

وأما قوم شعيب ــ الذين يعرفون أحيانا بأصحاب الأيكة ــ فهم أهل مدين التى تقع شرق خليج العقبة . وينسب المديانيون الى ابراهيم ــ عليه السلام ــ من زوجته قطورة ، التى يذكر الكتاب المقدس انه أنجب منها أبناء

كثيرين ، كانوا آباء لقبائل عربية استقرت فى فلسطين وشرق الأردن وشمال غرب الجزيرة العربية .

« وعاد ابراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة (غير هاجر أم اسماعيل ، وسارة أم اسحاق) فولدت له : زمران ويقشان ، ومدان ، ومديان ، وبشباق وشوحا .

وولد يقشان : شبا ، ودان . وكان بنو دان : أشوريم ، ولطوشيم ، ولأميم .

وبنو مديان : عيفة ، وعفر ، وحنوك ، وابيداع ، والدعة .

جميع هؤلاء بنو قطورة ـ سفر التكوين ٢٥ : ١ ـ ٤ » .

❁

والآن ـ نرى كيف هلكت تلك الأمم واستؤصلت جذورها وصارت ذكرى عابرة فى التاريخ .

❁ ❁ ❁

وسائل التدمير

لقد تنوعت وسائل التدمير الذى حل بأولئك الأولين ونجد فى القرآن الكريم مجملا لأنواعها المختلفات ، كما نجد لها تفصيلا تقصه الآيات البينات .

« فكلا اخذنا بذنبه : فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من اخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون » . (العنكبوت : ٤٠)

❁ ❁ ❁

هلكى الغرق والخسف : ان قصة الغرقى من الهالكين واضحة تمام الوضوح ولا تحتاج الى مزيد .

فالغرقى الذين ذكرهم القرآن الكريم هم : قوم نوح الذين حل بهم الطوفان ، وفرعون وجنوده ، الذين غرقوا فى مياه البحر الأحمر أثناء تعقبهم لبنى اسرائيل ، حين خرجوا من مصر بقيادة موسى .

أما قارون فكان ممن خسف الله به الأرض ، وهو اسرائيلى تنكر لقومه وغرق فى جمع الأموال ، وصار من ملأ فرعون :

«ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة ، اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين .

وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين .
قال انما اوتيته على علم عندى ..

فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين» . **(القصص : ٧٦ ـ ٨١)**

*

هلكى الحاصب : يعرف الحاصب ـ لغة ـ بأنه الريح الشديدة تثير الحصباء . ومن المعلوم ان الشعب الذى هلك بالريح هم عاد قوم هود. ان هذا ما يقرره القرآن الكريم ، ويؤكده فى كثير من آياته المتتابعات .

« كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كانهم اعجاز نخل منقعر » .
(القمر : ١٨ ـ ٢٠)

« فارسلنا عليهم ريحا صرصرا فى ايام نحسات ، لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون » .
(فصلت : ١٦)

« واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالأحقاف ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ، الا تعبدوا الا الله ، انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا اجئتنا لتافكنا عن آلهتنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين . قال انما العلم عند الله وابلغكم ما ارسلت به ولكنى اراكم قوما تجهلون . فلما راوه عارضا مستقبل اوديتهم ، قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم

به ، ريح فيها عذاب اليم . تدمر كل شيء بامر ربها ، فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين » . (الاحقاف : ٢١ ــ ٢٥)

ويقول المفسرون : الأحقاف واد بحضرموت .. وقد أرسل الله تعالى الى من حول بلادهم فى القرى مرسلين ومنذرين . (الا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى قال لهم هود ذلك فأجابه قومه قائلين (أجئتنا لتأفكنا ..) أى لتصدنا عن آلهتنا (فاتنا بما تعدنا ..) استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادا منهم وقوعه (فلما رأره عارضا مستقبل أوديتهم) أى لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر ، ففرحوا واستبشروا به وقد كانوا ممحلين محتاجين الى المطر قال الله تعالى (بل هو مااستعجلتم به ..) أى العذاب الذى قلتم فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين (١)

*

وتستمر آيات القرآن الكريم فى توكيد الهلاك بالريح فتقول :

« وفى عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء اتت عليه الا جعلته كالرميم » . (الذاريات : ٤١ ــ ٤٢)

« واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كانهم اعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية » . (الحاقة : ٦ ــ ٨)

لقد هلكت عاد بالريح .. !

انها سخرية القدر بهم أولئك الجبارين الذين غزوا امبراطوريات ، واستعبدوا شعوبا ، وكانوا اذا بطشوا بأمة بطشوا بها جبارين وقد امتلأوا غرورا حتى أن صيحتهم الساخرة كانت : « من أشد منا قوة » .

* *

هذا ــ ويجب أن نفرق بين الريح ، التى غلب استخدامها فى القرآن الكريم لتعنى القوة التى تبطش ، وبين الرياح التى جرى استخدامها كقوة

---

(١) تفسير ابن كثير .

من قـوى الخير . فهى تثير السحاب ثم تسوقه لينزل أمطارا تحيى موات الأرض ومن عليها .

فلقد وصفت الريح التى أهلكت عاد بأنها : « الريح العقيم » ، و «ريح فيها عذاب أليم » و « ريحا صرصرا »

كذلك استخدمت الريح بنفس المعنى فى آيات أخرى غير الآيات التى تحدثت عن عاد قوم هود :

« ان الذين كفروا لن تغنى عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئا ، واولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

مثل ما ينفقون فى هـــذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر اصـــابت حرث قوم ظلموا انفسهم فاهلكته . وما ظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون ».

(آل عمران : ١١٦ ـ ١١٧)

« مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ، ذلك هو الضلال البعيد » .

(ابراهيم : ١٨)

ومن يشرك بالله فكانما خـر من الســماء فتخطفه الطير ، او تهوى به الريح فى مكان سحيق » . **(الحج : ٣١)**

« يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جاءتكم جنـــود ، فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعلمون بصيرا » .

(الأحزاب : ٩)

ويبدو أن قلب الانسان قد غلبت عليه المادية الجامدة ، فأصبح يرى آيات الله فلا يلبث أن يهز كتفيه ، ويبيت مصرا على كفره ، بدعوى انها قوى الطبيعة المجردة تعمل عملها :

« ولئن ارسلنا ريحا فراوه مصفرا ، لظلوا من بعده يكفرون » .

(الروم : ٥١)

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت ايدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » . **(الروم : ٤١)**

*

أما استخدام الرياح فيما ينفع الناس فتذكره آيات كثيرة :

« وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فانزلنا به الماء ، فاخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » . (الأعراف : ٥٧)

« وارسلنا الرياح لواقح ، فانزلنا من السماء ماء ، فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين » . (الحجر : ٢٢)

« الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا ، فترى الودق يخرج من خلاله ، فاذا اصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون » . (الروم : ٤٨)

* *

هلكى الصيحة : نقرأ فى القرآن أنباء الهلكى من الأولين فنجده يخص بالذكر منهم :

قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون وقومه ، وقوم شعيب ، وأصحاب الرس ، وقوم تبع . هلكوا بوسائل مختلفة رغم اشتراكهم فى وصف ما حل بهم انه تدمير وهلاك ، تماما كما يحدث فى الحرب .

ان الحرب على مر العصور تعنى : التدمير والخراب والهلاك والآلام والفساد والخزى .. الخ مهما اختلفت وسائلها . ان ذلك ما تعينه أقدم الحروب فى التاريخ ، منذ كانت بالسهام والنبال والسيوف والدروع . . وهو ما تعنيه أيضا الحروب الحديثة مثل حرب فيتنام (١٩٦٣ — ١٩٧٣) وحرب رمضان ١٣٩٣ (أكتوبر ١٩٧٣) حيث استعمل فى الأخيرتين أكثر أدوات التدمير فتكا وتطورا ، الا أن حرب رمضان قد تميزت بأنها أول حرب انكترونية فى التاريخ .

لكن ثلاثا من أولئك الأقوام الأولى اشتركوا فى احدى وسائل اهلاكهم ، الا وهى الصيحة . وكما ان وسائل التدمير فى الحرب كثيرة رغم انها تحقق وضعا واحدا يعنى الهلاك والخراب وما اليه ، كذلك فان اشتراك أولئك الأقوال فى الهلاك بالصيحة لا يعنى انها الوسيلة الوحيدة التى هلكوا بها ،

لكنه يشير الى أنها قد تكون الوسيلة الرئيسية بجانب وسائل أخـرى اضافية .

*

هلكى الصيحة من القرون الأولى هم :

١ — ثمود قوم صالح ، أصحاب الحجر الذين قال فيهم القرآن الكريم:

«ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ... فاخذتهم الصيحة مصبحين»
(الحجر : ٨٠ — ٨٣)

« فلما جاء امرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، ان ربك هو القوى العزيز . واخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين » .
(هود : ٦٦ — ٦٧)

« انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة ، فكانوا كهشيم المحتظر » .
(القمر : ٣١)

٢ — ثم قوم لوط ، الذى جاءه الأمر الآلهى نذيرا باهلاكهم :

« وقضينا اليه ذلك الأمر : ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ... فاخذتهم الصيحة مشرقين » .
(الحجر : ٦٦ — ٧٣)

٣ — ثم قوم شعيب أصحاب مدين أصحاب الأيكة ، الذين طالما وقف فيهم شعيب واعظا يقول :

« يا قوم لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح ، او قوم هود ، او قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ..

قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز ..

ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين » .
(هود : ٨٩ — ٩٤)

ويبدو لنا أن الصيحة هى وسيلة الهلاك النمطية ، أو هى الوسيلة الغالبة فذلك ما نستبينه من آيات سورة « المؤمنون » حين تعرض سنة الأقوام مع

رسلهم وسنة الله فى اهلاكهم ، اذ تقول عقب الحديث عن اهلاك قوم نوح .

« ثم انشانا من بعدهم قرنا آخرين . فارسلنا فيهم رسولا منهم ، ان اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، افلا تتقون . وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة واترفناهم فى الحياة الدنيا ، ما هـذا الا بشر مثلكم ياكل مما تاكلون منه ، ويشرب مما تشربون . ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذن لخاسرون . ايعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما ، انكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين . ان هو الا رجل افترى على الله كذبا ، وما نحن له بمؤمنين . قال رب انصرنى بما كذبون . قال عما قليل ليصبحن نادمين . فاخذتهم الصيحة بالحق ، فجعلناهم غثاء ، فبعدا للقوم الظالمين . ثم انشانا من بعدهم قرونا آخرين . ما تسبق من امة اجلها ، وما يستاخرون . ثم ارسلنا رسلنا تترى ، كلما جاء امة رسولها كذبوه ، فاتبعنا بعضهم بعضا. وجعلناهم احاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون . ثم ارسلنا موسى واخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . الى فرعون وملاه ، فاستكبروا وكانوا قوما عالين ».

(المؤمنون : ٣١ ـ ٤٦)

ونلاحظ ان الصيحة ترتبط ـ عموما ـ بالرجفة التى تعتبر احدى نتائجها ، فقد ذكرت الرجفة كحالة أصابت ثمود قوم صالح :

« فعقروا الناقة ، وعتوا عن امر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين . فاخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين » .

(الاعراف : ٧٧ ـ ٧٨)

كذلك أصابت نفس الحالة أصحاب مدين قوم شعيب .

« وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذن لخاسرون فاخذتهم الرجفة ، فاصبحوا فى دارهم جاثمين » .

(الاعراف : ٩٠ ـ ٩١)

« والى مدين اخاهم شعيبا ، فقال : يا قوم اعبدوا الله ، وارجوا اليوم الآخر ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . فكذبوه فاخذتهم الرجفة ، فاصبحوا فى دارهم جاثمين » . (العنكبوت : ٣٦ ـ ٣٧)

ويقول الفخر الرازى فى تفسير آية سورة العنكبوت هـذه ـ التى تحدثت عن هلاك أصحاب مدين بالرجفة وهم الذين سبق أن تحدث القرآن

عن هلاكهم بالصحية : « ان الصيحة كانت سببا للرجفة اما لرجفة الأرض .. واما لرجفة الأفئدة . والاضافة الى السبب لا تنافى الاضافة الى سبب السبب .

اذ يصح أن يقال . روى فقوى ، وأن يقال : شرب فقوى » (١) .

* *

ان هذه القاعدة صحيحة وهامة ، وتقابلنا لها أمثلة كثيرة فى القرآن الكريم .

فقد ينسب الفعل الى الله ، باعتبار أن المشيئة الآلهية هى السبب الحقيقى أو السبب الأصلى .

« هو يحيى ، ويميت ، واليه ترجعون » . (يونس : ٥٦)

« الله يتوفى الانفس حين موتها » . (الزمر : ٤٢)

كذلك ينسب نفس الفعل الى المخلوق باعتباره السبب الظاهر ، فقد جعلت الوفاة عملا من أعمال الملائكة :

« الذين تتوفاهم الملائكة ـ طيبين ـ يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » . (النحل : ٣٢)

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا » . (النساء : ٩٧)

كذلك ينسب الفعل الى الحالة ذاتها التى تغشى المفعول به ، فقد اعتبر الموت سببا فى الوفاة :

« كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين » . (البقرة : ١٨٠)

---

(١) تفسير الفخر الرازى .

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم ، فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فان شهدوا ، فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » . (النساء : ١٥)

* * *

واذا كنا لا نجد ذكرا للرجفة فى اهلاك قوم لوط فان هذا لا يعتبر سببا كافيا لنفى الرجفة عن ملاحقتها للصيحة التى أخذتهم ، فليس من الضرورى أن يعيد القرآن جميع الأحداث أو العناصر التى ترتبط بموقف ما ، أو قصة معينة ، كلما جاء لها ذكر . ويمكن ملاحظة هذه السمة فى مواقف كثيرة نذكر منها على سبيل المثال قصة نوح وقومه . فقد ذكرها القرآن الكريم بايجاز شديد فى آيتين اثنتين فقط ، اذ قال :

« ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما فاخذهم الطوفان وهم ظالمون . فانجيناه واصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » . (العنكبوت : ١٤ ـ ١٥)

ولا عجب فقد سبق ذكر قصة نوح وقومه تفصيلا فى سور كثيرة سبقت نزول سورة العنكبوت منها : سورة هود التى ذكرتها فى ٢٤ آية ، وسورة نوح بأكملها التى ذكرتها فى ٢٨ آية .

وكذلك قصة فرعون وملائه مع موسى التى ذكرت تفصيلا فى آيات كثيرة من سور كثيرة مثل سور : الأعراف والشعراء والنمل والقصص ـ ثم ذكرت فى آية واحدة من سورة العنكبوت ـ كذلك ـ التى نزلت بعد تلك السور ، وذلك فى قوله :

« وقارون ، وفرعون ، وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين » . (العنكبوت : ٣٩)

*

هذا ـ ولسوف ننظر الآن ما كان من تدمير أولئك الأقوام الثلاثة هلكى « الصيحة » وذلك على ضوء ما تذكره كتب الحديث والتفسير وما يذكره العلم الحديث .

* *